« قصيدة الحطيئة »

وطاوى ثلاث

دراسة تحليلية نقدية

الدكتور أحمد أحمد منصور نفادى

تعريف بالشاعر :

هو الشاعر المخضرم أبو مليكة جرول بن أوس الملقب بالحطيئة لدمامته وقصره ، ينتسب الى بنى قطيعة من قبيلة « عبس » (١) وان قيل ان نسبه فى « عبس » غير صريح ، حيث ولدته أمه لامرأة ذهلية كانت متزوجة فى « عبس » فكان اذا غضب على عبس رحل الى « ذهل » وانتسب اليهم ، بل كان كلما رضى عن قبيلة انتسب اليها ، وكانت الى أنه كانت له ابنة تسمى بذلك • ويقال ان مليكة هذه كانت على قدر الى أنه كانت له ابنة تسمى بذلك • ويقال ان مليكة هذه كانت لعى قدر من الجمال ، وأن جمالها أغار منها زوجة « الزبرقان بن بدر » عندما نزل الحطيئة عنده ، وأن هذه الغيرة جعلت زوجة الزبرقان تقصر فى اكرام الحطيئة ، وتظهر له ولأهله الجفوة والتغير ، فاضطر الى التحول عن « الزبرقان » الى منافسه « بغيض بن عامر بن لأى بن شماس » الذى كان قد علم بما عليه الحطيئة ، فأغراه بالتحول اليه ، وعندما تحقق له ذلك فى غيبة « الزبرقان » بالغ بغيض فى اكرامه ، والاحتفاء به

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٦٤ ط القسطنطينية سنة ١٢٨٢هـ نشر مكتبة : عالم الكتب ببيروت •

(٢) المفصل فى تاريخ الأدب العربى المجارم وآخرين جـ ١ ص ١١٧ مكتبة الجماميز بالقاهرة •

فجازى الحطيئة صنيعه بالنظم فى مديحه ، وهجاء «الزبرقان بن بدر» (٣) بالقصيدة التى يقول فيها :

ما كان ذنب بغيض أن رأى رجلا ... ذا فاقة حل فى مستوعر شاس
جارا لقوم أطالوا هون منزله ... وغادروه مقيما بين أرماس
ملوا قراه وهرته كلابهم ... وجرحوه بأنياب وأضراس
دع المكارم لا ترحل لبغيتها ... واقعد فانك أنت الطاعم الكاسى (٤)

ومعروف أن الزبرقان قد استعدى على « الحطيئة » أمير المؤمنين عمر بن الخاطب رضي الله عنه وأنشده قول الحطيئة فيه :

« دع المكارم لا ترحل لبغيتها .... الخ »

فقال له عمر : ما أراد هجاءك . أما ترضى أن تكون طاعما كاسيا ؟

فقال الزبرقان : يا أمير المؤمنين ، انه لا يكون فى الهجاء أشد من هذا . وعلى الرغم من أن عمر كان ذواقة للشعر ، ينظمه أحيانا ، ويعرف مراميه ويفهم مداخله ومخارجه الا أن عدالته أبت عليه أن يصدر حكمه فى الخصومة قبل أن يستشير من هو أقوى شاعرية منه ومن الزبرقان ، وهو حسان بن ثابت رضى الله عنه ، فاستدعاه عمر واستشاره فى قول الحطيئة السابق ، فقال حسان :

« ما هجاه ولكن سلح عليه » (٥)

---

(٣) طبقات الشعراء لابن سلام الجمحى ص ٤٠ ط دار الكتب العلمية ببيروت ، صور من الأدب الاسلامى والأموى للدكتور محمد سرحان .

(٤) مستوعر : مكان شديد القيظ ـ شاس : خشن . أرماس : جمع رمس وهو القبر .

(٥،٦) الشعر والشعراء : المرجع السابق ، والأدب العربى بين الجاهلية والاسلام للشيخ المسلوت .

فقال عمر للحطيئة : يا خبيث ، لاشغلنك عن أعراض المسلمين ، ثم أمر به فألقى فى حفرة كان قد جعلها محبسا (٦) ، ثم عفا عنه وأطلق سراحه وأخذ عليه ألا يهجو مسلما ، وذلك بعد أن استعطفه بتلك الأبيات :

ماذا تقول لأفراخ بذى مرخ
زغب الحواصل لا ماء ولا شجر
ألقيت كاسبهم فى قعر مظلمة
فاغفر عليك سلام الله يا عمر
أنت الامام الذى من بعد صاحبه
ألقت اليه مقاليد النهى البشر
ما آثروك بها اذ بايعوك لها
لكن لأنفسهم كانت بك الاثر

وكان الحطيئة هجاء خبيث اللسان ، ملأت دمامته وقبح منظره واحساسه بضآلة نسبه قلبه بالحقد على الناس ، فلم يسلم من لسانه أحد ، فقد هجا نفسه ، وأباه وأمه و ..... قال عن نفسه :

أبت شفتاى اليوم الا تكلما
بشر فما أدرى لمن أنا قائله
أرى لى وجها شوه الله خلقه
فقبح من وجه وقبح حامله

وقال لأمه :

تنحى واقعدى منى بعيدا
أراح الله منك العالمينا
ألم أظهر لك البغضاء منى
ولكن لا اخالك تعقلينا

أغربا لا اذا استودعت سرا
وكانونا على المتحدثينا
جزاك الله شرا من عجوز
ولقاك العقوق من البنينا
حياتك ما علمت حياة سوء
وموتك قد يسر الصالحينا

وقال لأبيه :

لحاك الله ثم لحاك حقا
أبا ولحاك من عم وخال
فنعم الشيخ أنت لدى المخازى
وبئس الشيخ أنت لدى المعالي
جمعت اللؤم لاحييت ربى
وأسباب السفاهة والضلال

كما كان الحطيئة جشعا سئولا ملحفا ، قليل الخير ، كثير الشر ، ورث الهيئة يعميه حقده عن رؤية محاسن الناس ، ويمنعه عن الاعتراف باحسانهم اليه ، وشكر أياديهم عنده ، بل ان شعوره بمركب النقص فى شخصيته كان يحنقه على جميع الخلق ، ويبغضهم اليه ، ويصور له حسناتهم سيئات ، وذلك لرقة دينه ، وفساد عقيدته ، فلا يكاد يلمح ثغرة ينفذ منها الى أعراض من أحسنوا اليه الا وسارع الى اقتحامها وتوسيع منافذها ، فلا يعفو عن تقصير ، ولا يلتمس عذرا !! .

« دخل على « عتيبة بن النهاس العجلى » فسأله فقال : ما أنا فى عمل فأعطيك من مدده ، وما فى مالى فضل عن قومى ، فلما خرج قال له رجل من قومه : أتعرفه ؟ قال لا لا ، قال : هذا الحطيئة ، فأمر برده ، فلما رجع قال له : انك لم تسلم تسليم الاسلام ، ولا استأنست

استئناس الجار ، ولا رحبت ترحيب ابن العم • قال : هو ذلك • قال : اجلس فلك عندنا ما تحب ، فجلس ، فقال له : من أشعر الناس ؟ •

قال : الذى يقول :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه
يفره ومن لا يتق الشتم يشتم (٧)

قال عتيبة : ثم من ؟ قال : الذى يقول :

من يسأل الناس يحرموه
وسائل الله لا يخيب (٨)

قال عتيبة : ثم من ؟ قال : أنا • فقال عتيبة لغلامه : اذهب به الى السوق فلا ينسين الى شيء الا اشتريته له ، فانطلق به الغلام فجعل يعرض عليه الحبرة والخز والقز فلم يلتفت الى شيء منه وأشار الى الاكسية والكرابيس الغلاظ والاقبية ، فاشترى له منها حاجته ، ثم قال : امسك • قال : فانه أمرنى أن ابسط يدى بالنفقة ، قال : لا حاجة فى أن يكون له على قومى يد اعظم من هذه ، ثم أنشأ يقول :

سئلت فلم تنجلى ولم تعط طائلا
فسيان لا ذم عليك ولا حمد
وأنت امرؤ لا الجود منك سجية
فتعطى وقد يعدى على النائل الوجد (٩)

---

(٧) يشير الى زهير بن أبى سلمى وفى البيت تعريض بعتيبة وذم له بالبخل •

(١٠) اشارة الى الشاعر الجاهلى عبيد بن الأبرص ، وفى البيت تعريض آخر يحمل ندم الخطيئة على سؤال مثل عتيبة •

(٩) الكرابيس : جمع كرباس وهو ثوب غليظ من القطن الأبيض =

ويرى « ابن قتيبة » أن الحطيئة لم يسلم الا بعد وفاة رسول الله ﷺ ، حيث لم يوجد له ذكر فيمن وفد عليه من وفود العرب(١٠) .

والذى يهمنا هنا أن اسلامه كان ضعيفا بدليل أشعاره المقذعة فى الهجاء ، واتجاهه الجاهلى الصرف الذى يجعلنا نقطع بأن بشاشة الاسلام لم تخالط قلبه ، وحسبنا أن نعلم أنه كان من جملة المرتدين فى عهد الصديق أبى بكر رضى الله عنه ، الذين كانوا ينظرون الى الزكاة على أنها اتاوة لا يحق لأبى بكر أن يحصلها بعد رسول الله ﷺ . وقد قال فى ذلك :

أطعنا رسول الله اذ كان بيننا
فيالهفتى ما بال دين أبى بكر
أيورثها بكرا اذا مات بعده
فتلك وبيت الله قاصمة الظهر

ومعروف أن قبيلة « عبس » (١١) كانت ضمن قبائل المرتدين ، والحطيئة شاعر على دين قومه فحسب ، أسلم قومه فأسلم ، وأرتدوا فارتد ، ثم آب الى حظيرة الاسلام من جديد عندما أيقن معهم أن لا مكان للكفر فى أرض الجزيرة العربية ، ولكنه الاسلام الرقيق الذى لا يصل من العمق فى وجدان صاحبه الى حد تطهير القلب وتهذيب اللسان ، وضبط السلوك !! .

= يعدى : يعين ـ الوجد : اليسار والسعة (راجع القصة فى العقد الفريد ج ١ ص ٢٨٤ ، الشعر والشعراء ص ٦٦ ط القسطنطينية) .

(١٠) المرجع السابق ص ٦٥ .

(١١) راجع سيرة ابن هشام ، وعبقرية خالد لعباس العقاد : الفصل الخاص بحروب الردة .

ومن حيث الموهبة الشعرية ، فان الحطيئة كان متين الشعر ، شرود القافية ، ينتمى الى مدرسة التنقيح والتحكيك فى الشعر ، وهو القائل : « خير الشعر الحولى المحك » • وهو الاتجاه الذى سنه « زهير بن أبى سلمى » ثم ابنه كعب من بعده ، وكان الحطيئة راوية لكعب • وقد روى ابن سلام فى طبقات الشعراء أن الحطيئة قال لكعب ابن زهير : قد علمت روايتى شعر أهل البيت — يقصد بيت زهير — وانقطاعى اليكم ، وقد ذهبت الفحول غيرى وغيرك ، فلو قلت شعرا تذكر فيه نفسك وتضعنى موضعا ، فان الناس لأشعاركم أروى واليها أسرع ، فقال كعب :

فمن للقوافى شأنها من يحوكها
اذا ما ثوى كعب وفوز جرول
كفيتك لا تلقى من الناس واحدا
تنخل منها ما يتنخل
يثقفها حتى تلين متونها
فيقصر عنها كل ما يتمثل(١٢)

كما كان عالما بأشعار العرب وأخبارها وأيامها ومآثرها • روى ابن قتيبة فى « الشعر والشعراء » أنه — الحطيئة — أتى مجلس سعيد بن العاص وهو على المدينة يعشى الناس ، فلما فرغ الناس من طعامهم وخف من عنده ، نظر فاذا على البساط رجل قبيح الوجه ، كبير السن رث الهيئة ، وجاء الشرط ليقيموه وهم لا يعرفونه ، فقال سعيد : دعوه وخاضوا فى أحاديث العرب وأشعارهم ، فقال الحطيئة : ما أصبتم من الشعر أحسنه • قالوا وعندك علم من ذلك ؟ قال : نعم • قالوا : فمن أشعر الناس ؟ قال : الذى يقول :

---

(١٢) طبقات الشعراء ط دار الكتب العلمية ببيروت ص ٣٤ •

لا أعد الاقتار عدما ولكن فقد من قد رزئته الاعدام

قالوا : ثم من ؟

قال : حسبكم بى ، والله اذا وضعت احدى رجلي على الأخرى ثم عويت عواء الفصيل أثرت القوافي !!

قالوا : من أنت ؟

قال : أنا الحطيئة .

فرحب به سعيد وقال : لقد أسأت فى كتمانك ايانا نفسك وقد علمت شوقنا اليك ، ومحبتنا لك ! ثم أكرمه وأحسن اليه ، فقال فيه

لعمرى لقد أضحى على امر سائس
بصير بما ضر العدو أريب
سعيد فلا يغررك خفة لحمه
تخدد عنه اللحم فهو صليب
اذا غبت عنا غاب عنا ربيعنا
ونسقي الغمام الغرضين تئرب
فنعم الفتى نعشو الى ضوء ناره
اذا الريح هبت والمكان جديب(١٣)

---

(١٣) الشعر والشعراء ط القسطنطينية ص ٦٦ ، والسائس : الذى يسوس الأمر ويقوم به والمراد به سعيد ، ومعروف أن معاوية كان يداول ولاية المدينة المنورة بين سعيد ومروان ابن الحكم (انظر العقد الفريد تحقيق أحمد أمين ، والزين والابيارى ج ١ ص ٢٩٩) .

أريب : عاقل بصير ـ صليب : شديد قوي ـ الغمام : المطر ـ الغر : المراد به أول المطر أو معظمه ـ تئوب : ترجع ـ جديب : مجدب .

وقد امتد الأجل بالحطيئة حتى جاوز ثمانين سنة من عمـــرم ، ثم مات فى خلافة « معاوية بن أبى سفيان » سنة ٥٩هـ(١٤) .

القصـــيدة :

يقول الحطيئة :

وطاوى ثلاث عاصـــب البطن مرمل
ببيداء لم يعرف بها ساكن رسما(١٥)
أخى جفـــوة فيه من الناس وحشة
يرى البؤس فيها من شراسته نعمى(١٦)
وأفـــرد فى شعب عجوزا ازاهـــا
ثلاثة أشـــباح تخـــالهم بهمـــا
حفـــاة عراة ما اغتـــذوا خبز ملة
ولا عرفوا للبـــر مذ خلقوا طعمـــا

---

(١٤) المفصل فى تاريخ الأدب العربى جـ ١ ص ١١٧ .

(١٥) المنتخب من أدب العرب جـ ٤ ص ١١٣ ط المطبعة الأميرية ، طاوى : جائع ـ ثلاث أى ثلاث ليال ـ عاصب البطن : معصوبة من شدة الجوع ـ مرمل : فقير فاقد الزاد ـ بيداء : فلاة ـ رسم : علامة .

(١٦) الشراسة : سوء الخلق أو الحال وهو المراد هنا ـ والنعمى : النعمـــة ـ العجوز المراد بها الزوجة ، والمراد بالأشـــباح هنا أنباؤها ـ والبهم : جمع بهمة الصغير من أولاد المعز أو الضأن ـ الملة : رماد التنور الحار ـ وخبزها : ما يخبز فيها ـ راعه : أفزعه ـ تشـــمر : اســـتعد ، هيا : حرف نداء للبعيد واستعماله لمناجاة الله عز وجل مع أنه أقرب الى العبد من نفسه ، لأن الشاعر أراد تصوير حالة الاضطرار التى عليها الرجل ، وشعوره ببعد المنزلة بينه وهو المخلوق الضعيف وبين الله وهو الخالق العظيم (راجع جـ ٤ من النحو الوافى لعباس حسن هامش ص ١ ط سادسة) . القرى : ما يقدم للضيف من طعام ونحوه .

رأى شـبحا وسط الظلام فراعـه
فلمـا رأى ضـيفا تشمر واهتما

فقال : طياه رباه • ضيف ولا قـرى
بحقك لا تحرمـه تا الليلة اللحمـا

فقال : هياه رباه • ضيف ولا قرى
أيا أبت أذبحنى ويسر له طعمـا

ولا تعتذر بالعدم عل الذى طـرا
يظن لنـا مـا لا فيوسعنا ذمـا

فروى قليـلا ثم أحجم برهـة
وان هو لم يذبح فتـاة فقدهمـا

فبيناهمـا عنت على البغد عـانة
قد انتظمت من خلف مسـحلها نظما

عطاشا تريد الماء فانساب نحـوها
على أنـه منهـا الى دمها أظمـأ

فأمهلهـا حتى تروت عطاشـها
فأرسل فيهـا من كنانته سـها

فخرت نحوص ذات حجش سمينة
قد اكتزت لحمـا وقد طبقت شحما

فيابشره اذ جرهـا نحو قومـه
ويا بشـرهم لما رأوا كلمهـا يدمى

وباتوا كرامـا قد قضوا حق ضيفهم
وما غرموا غرمـا وقد غنموا غنما

وبات أبوهم من بشـاشته أبا
لضيفهم والأم من بشرهـا أما(١٧)

---

(١٧) العـدم : الفقـر – روى : فكر – أحجم : تراجع – عنت : =

موضوع القصيدة وأفكارها :

يصور الحطيئة فى قصيدته « وطاوى ثلاث » قصة(١٨) رجل من أولئك الذين اشتملت عليهم البادية العربية القديمة ، وضمت أرجاؤها

=

ظهرت ـ عانة : قطيع من حمر الوحش ـ المسحل : الحمار الوحشى يقود القطيع ـ انساب : أسرع ـ تروت : رويت ـ الكنانة : جعبة السهام ـ نحوص : سمينة ـ الكتنزت : امتلأت ـ طبقت شحما : عمها الشحم ـ الكلم : الجرح ـ يدمى : يسيل منه الدم .

(١٨) لا مانع من أن تكون هذه القصة معبرة عن تجربة حقيقية وقعت فعلا وسمع بها الشاعر ، أو أنه كان هو نفس الضيف الطارق الذى أكرمه الأعرابى المشار اليه أو أن القصة خيالية مختلفة ألفها الشاعر تأليفا ، وعبر فيها لا شعوريا ، عما يطمح اليه فى جانبه الخير ، وما كان يتمنى أن يكونه من حاتمية وشهامة نفس ، فهى اذن صدى للاشعوره المستتر فى أغوار نفسه « والذين هم علم بالقلب الانسانى يحكمون بأنه من الطبيعى أن يتغنى المرء بما يريد وبما يعوزه ، وبما تقصر دونه قواه ووسائله ولذلك يخرج من التضاد بين حياة رتقة آنمة وبين المثال المنشود شعر شعر اكتمل نبلا وصفاء ، لأن الشعر كما قالوا يتولد من الرغبة الجائعة لا من الرغبة المشبعة التى لا يتولد عنها شىء ما ، فالشعر يمثل جانب الشاعر الفكرى المثالى لا جانبه العملى ، ومن ذلك لجانب تنشط الأحاسيس السامية والعواطف النبيلة .. وليس ضروريا أن يكون الشاعر قد عانى التجربة بنفسه حتى يصفها ، بل يكفى أن يكون قد لاحظها وعرف بفكرة عناصرها وآمن بها ودبت فى نفسه حمياها ، ولابد أن تعينه دقة الملاحظة وقوة الذاكرة وسعة الخيال وعمق التفكير حتى يخلق هذه التجربة التى تصورها عن قرب على حين لم يخض هو غمارها (راجع النقد الأدبى الحديث ص ٣٨٣ وما بعدها فى حديث الدكتور غنيمى هلال عن التجربة الشعرية) ولا مانع أيضا من أنه فى هذا التعبير عن لا شعوره قصد اثارة نخوة الكرماء وحثهم على البذل والسخاء .

كل أطوار حياتهم ، منذ المولـد حتى لحظة الرحيل عن الدنيـا ، فهم يضطربون فى أرجائها ، وينتقلون بين سهولها ونجادها ، بحثا عما يمسك الأود ويضمن استمرار الحياة ، مما عسى أن تجود به الطبيعة القاسية فى صحراء مقفرة موحشة مترامية الأطراف ، وانه لجد قليل !!

فالرجل فقير شديد الفقر ، معسر بالغ الاعسا ر ، ولكنه مع فقره وشدة عوزه وضيق ذات يده يحمل بين جنبيه قلب جواد سخى ، يبذل فى سبيل المحامد وطيب الذكر كل ما تصـل اليه يده ، وينفقه راضـيا سعيدا لأن هذا خلقه ، وتلك طبيعته وفطرته التى فطره الله عليهـا ، فهو عاشق للثناء ، محب للمديح ، يكره أن يجرى ذكره على ألسـنة الناس بما ليس فيه من شح أو تقتير !!

وفقر الرجل وشدة فاقته للرثاء والألم ، باعثان على التأمل العميق فى مدى مصابرته وقوة احتماله،فقد بلغ من الحرمان والجوع حدا بعيدا ليس بعده الا الموت .. انه لم يذق الطعام منذ ثلاث ليال ، وانه ليشد بطنه بحزام يعصبها به حتى يتماسك ويقـوى على السير فى فلاة مقفرة شاسعة خالية من العمران ، لا يرى ساكنها فيهـا أثرا لديار أو نافخ نار !!

وقد أكسبته حياة الصحراء الموحشـة دربة على العزلة والانقطاع عن الناس ، ومرانة على اللأواء وشدة المكابدة ، فهو قانع بعيشه فيها، يرى سعادته ونعماه فيما تسوقه اليه الأقدار من رزق ضئيل قصاراه حفظ النفس وامساك الحياة .

وهو على حرمانه وفاقته وشظف عيشه ، يحمل عبء أسرة تتكون من زوجة وثلاثة أطفال صغار ، عجز عن تهيئة مأوى مناسب لهم يقيهم حمارة القيظ وزمهرير الشتاء ، فأقرهم فى شعب من شعاب الجبال ، وانهم على درجة من الرثاثة ، وضآلة الحجم وسوء الهـزال ، تخيـل لرائيهم أنه يرى ثلاثة من سخال المعز حول أمهم ، ولا عجب فى ذلك

فهم حفاة الأقدام ، عراة الأجسام ، حرمهم البؤس والشقاء أن يذوقوا خبزا أنضجته النار ، بله المتخذ من القمح ، فهم لم يعرفوا لونه ولم يذوقوا طعمه منذ أن خلقهم الله .. !!

والرجل البائس المعدم ، المنفرد بأسرته فى شعب موحش ، يستشعر الخطر عندما يجنه الليل ، وينتشر الظلام ، لأنه لا يأمن أن يهجمه ذئب جائع ، أو وحش من تلك الوحوش الضارية التى تختفى بالنهار ، ثم تخرج باحثة عن طعامها تحت أستار الظلام ، فهو حذر مترقب ، يمد سمعه ، ويحد بصره ليتخذ أهبته للخطر قبل أن يحدق به .

وهكذا سمع الرجل المتوجس وقع خطا ، ولمح شبحا يتراءى من بعيد فارتاع وتوقع شرا ، ولكنه ما لبث أن اطمأن قلبه ، وهدأت نفسه اذ تكشف الشبح اللائح ، والخيال المترائى ، عن ضيف جائع تقاذفته الفجاج ، وتقطعت به الحبال ، جاء يطلب القرى فحسب ، وهنا نجد الرجل يتضاعف همه من جديد ، وتستبد به مشاعر الحيرة والأسى فلا يجد حيلة سوى أن يضرع بفطرته الى الله خالق الكون ألا يعدم ضيفه القرى ، وألا يحرم اللحم فى تلك الليلة الملظمة القاسية !!

ويبدو ان أكبر أبنائه كان مميزا ، على قدر لا بأس به من الفهم والذكاء مما جعله يشعر بحيرة أبيه ، ويدرك ما يدور بخاطره من الاستخزاء والشعور بالهوان أمام الضيف المضطر الذى لم يقم بحقه من الاكرام فيود أن يفدى نخوة أبيه بنفسه ، ويعرض عليه أن يذبحه ليطعم بلحمه الضيف ، فهذا أفضل بكثير من اعتذار بالعدم ، يدفع الطارىء المكذب الى أن يوسع الرجل وأسرته ذما وتجريحا .. وهذا ما لا يرضاه الابن البار لأبيه أبدا ... !!

والرجل الكريم المملق ذو النخوة ، يكاد يقتنع بفكرة أبنه فرارا مما هو فيه من جرح وشعور بالاستخزاء ، .. ولكن : كيف يطيق التضحية

بفلذةكبده ؟ وما السبيل غير هذا التصرف لاكرام الضيف ؟ حيرة ما بعدها حيرة• وضيق ليس وراءه ضيق ، ولكن الشدة لابد أن تئول الى فرج، والكريم لا يمكن أن يضام مهما تقطعت به السبل وتعقدت أمامه المسالك، فهذه فرصة العمر تلوح خلال اختلاء الرجل بابنه ومناجاته اياه ••• ان قطعيا من الحمر الوحشية يقبل فجأة الى مورد ماء قريب ، وقد انتظم فى سيره الحثيث وراء فحله الذى يتقدمه ، فيا للفرصة المتاحة أمـام متلهف هو أشد تحرقا الى دماء القطيع منه الى مورد الماء !!

لقد انساب نحو الحمـر سريعا ، وكمن لهـا بحيث يستطيع أن يصطاد منها وأمهلها حتى شربت وارتوت ، ثم صوب سهما الى احداها وكانت ذات ولد يتبعها ، تمتاز بالسمن واكتناز اللحم ، وكثرة الشحم فخرت على الفور صريعة تتشحط فى دمائهـا ، فما أشد فرحتـه وهو يجرها نحو قومه ، وما أشد بشرهـم وسرورهم عندما رأوا الصـير تسيل الدماء من جرحه !!

لقد قدموا من لحمها لضيفهم بسخاء ، وهشوا له وبشوا ، وبالغوا قاموا بحقه ، وقدموا له قراه دون أن يغرموا شيئا مقابل ما اكتسبوه من جميل الثناء وحلو المديح !!

لقد قدموا من لحمها لضيفهم بسخاء ، وهشوا له وبشوا ، وبالغوا فى مجاملته والتبسط معه ، والترحيب به ، ونسى الأب والأم لفـرط سعادتهما أنهما يتعاملان مع رجل غريب ، وخلطاه بنفسيهما كأنه واحد من أبنائهما يؤثران ويعطفان عليه •

التصـوير والتعبير :

أجاد الحطيئة كل الاجادة فى اختيار عباراته المصورة لصته والموحية بأحداثها وتأمل فى تجربته الشعرية تأملا طويلا ، ثم تأنق فى اختيـار ألفاظها وانتقاء عباراتها ، واحكـام نسجها ، بحيث جـاءت متسلسلة

الأفكار مترابطة المعانى ، سهلة التراكيب ، بسيطة العبارات ، قوية التأثير خالية من التكلف تماما ، وكأنها « نظمت عفو الخاطر فى نوع النشوة ومن الجنون الفنى » كما يقول الشاعر الأمريكى : « أدجار آلان بو »(١٩) ولا غرو فى ذلك فالحطيئة امتداد لمدرسة « زهير بن أبى سلمى » التى عرفت بالصنعة والتنقيح .

فبطل القصة ليس مجرد جائع يعيش فى الصحراء ، ولكنه يعانى لذع جوع رهيب لا طاقة لبشر باحتماله ، فهو جوع قد اشتدت وطأته عليه منذ ثلاث ليال واضطرته اضطرارا الى أن يشد أحشاءه ، ويربط عليها الحجر انتظارا لفرج قد ضعف الأمل فيه وعظم اليأس منه ، لا سيما وأن الجبل يعيش ببيداء موحشة مخيفة لا تلمح العين أثر الانسان ، أو علامة تدل على وجوده ، وهى صورة توحى بالمرارة وشدة المعاناة ، والقدرة الخارقة على الصبر على تحمل آهوال الجوع وقوة لذعه ، وما يصاحب ذلك من وحشة وانفراد فى قفر فسيح يترك بصماته على نفسية الرجل جفوة واستيحاشا ، يكادان ينسيانه عشرة أبناء جنسه من البشر ، ويجعلانا نتخيله انسانا غريب المنظر ، وحشى الملامح ، قاس النظرات ، مسترسل الشعر مستطيل

---

(١٩) النقد الأدبى الحديث للدكتور غنيمى هلال ص ٣٦٨ . وكان هذا الشاعر يقلل من قدر الالهام فى الشعر ويرى أن كبرياء الشعراء تدفعهم الى عدم الاعتراف بما يعانون فى صنعة الشعر ، وأنهم لايصفون هذا الجهد ليتركوا الآخرين يفهمون أنهم ينظمون عفو الخاطر فى نوع من نشوة الجنون الفنى » — وكان ممن يقللون من شأن الالهام أيضا الشاعر الفرنسى « بودلير » والشاعر الانجليزى المعاصر « سبندر » الذى كان يرى أن كل شىء فى الشعر جهد وقد يستمر الجهد فى النظم يوما أو أسابيع أو سنتين حتى يبدو الشعر فى هذه المدة كأنه قد كتب من تلقاء نفسه : المرجع السابق ص ٣٦٩ .

الأظافر على البدن ، هزيل الجسم ، اختلط سواد لونه بصفرة الجوع كأنه خارج لتوه من قبره ، وما ان تدور بأذهاننا هذه الصورة البشعة المنفرة حتى نتذكر على الفور قول الشاعر الأصيمر السعدى :

عـــودى الذئب فاستأنست للذئب اذ عوى
وصـــوت انســـان فكـــدت أطـير(٢٠)

واذا كان الاسم يدل على الثبوت والاستمرار ، بينما الفعل يدل على التجدد(٢١) والحدوث فان الخطيئة كان فى غاية التوفيق عندمـا استعمل الأسماء : طاوى ، عاصب مرمـل التى توحى لمن يسـمعها أو يقرؤها أنها صفات لازمة لا تنفك ولا تزول ــ كما أن التنكير فى الكلمات : بيداء ــ رسم ــ وحشة : يوحى بأن الصحراء التى كان يعيش فيهـا بطل القصة كانت مجهولة ، وأنها كانت واسعة عظيمة الاتساع ، وأنها كانت موحشة ينعدم فيها تماما أى أثر لانسان مما يدله على رهبتهـا ، وفظاعة العيش فيها ، وأن نفرة الرجل وانقباضه عن مخالطة النـاس كانا شديدين .

أما تنكير كلمة « نعمى » فانه يوحى بالقناعة العظيمة التى يتميز بهـا الرجل الفقير المعدم بحيث انه يرى اليسير جدا من الزاد نعمـة ما بعدها نعمة .

وأما فى قوله « وأفرد فى شـعب الخ » فنجد الواو الدالـة على المصاحبة والتى توحى بثقل عبء هذا الجائع البائس ، وهو عبء ينوء به

---

(٢٠) الأصيمر السعدى شاعر اسلامى كان صعلوكا ولصا فاتكا كثير الجنايات ، خلعه قومه فخـاف السـلطان وهرب الى الفلوات وقفار الأرض (انظر ترجمته فى الشعر والشعراء لابن قتيبة ط القسطنطينية ص ١٨٣) .

(٢١) الايضاح للقزوينى تحقيق د. محمد عبد المنعم خفاجى .

كاهلة وتعجز قدرته عن احتماله .. ذلك أنه يعول زوجة وثلاثة أبناء فوق ما هو فيه من كرب واضطرار . كما نجد جملة « أفرد الخ » التى توحى ايحاء قويا بمدى ما عليه الزوجة وأبناؤها من شقاء وضياع فى غيبة الزوج الذى يضرب سحابة يومه فى فجاج الصحراء العريضة ، عله يعثر على ما يقتاتونه ، وهذا ما يؤكده قوله « ازاءها » الذى يجعلنا نتخيل الأم وأولادها فى ذلك الشعب على حالة يرثى لها من الهزل وسوء الحال ، فننسى أنهم كائنات بشرية ويغلب على ظننا أننا قبالة صورة أجيد رسمها لعنز عجفاء تناثرت حولها سخالها المهزولة الناحلة ، التى أعجز الجوع حركاتها ، فكأنهم جميعا فى عداد الأموات .

وتزداد الصورة وضوحا فى البيت الرابع « حفاة عراة الخ » الذى ساقه مساق الدليل على صحة قوله : ان العجور وبنيها الجياع المهزولين يشبهون عنزا عجفاء حولها سخال ، هى الى الموت أقرب منها الى الحياة ، وما على الشاك فى ذلك الا أن يتبعنى وينظر ليتيقن من صدق ما أقول .

أو لم يفردوا مع أمهم فى ذلك الشعب الكئيب الموحش حفاة عراة يلتحفون على جوعهم المرير السماء ويفترشون الغبراء ؟ فأى مميزات بشرية يتمتعون بها اذن ؟ وهل يختلف منظر عنز عجفاء حولها سخال هزيلة عن منظرهم هذا ؟

انهم محرمون من أبسط طعام يمكن أن يتصوره انسان ، فلم يذوقوا خبزا أنضجته النار ، كما أنهم لم يعرفوا طعم البر . وهذا تصوير قوى مؤثر لحال الأم وأولادها ، نجد فيه الكناية عن الفقر المدقع والحرمان البالغ فى قوله «ما اغتذو اخبز ملة» وقوله «ولا عرفوا للبر مذ خلقوا طعما » وهما كنايتان موحيتان بقوة عاطفة الأبوة عند الرجل ، وشدة رثائه لما عليه أسرته من بؤس وشقاء !!

وقد آثر الحطيئة فى تصويره لفقر هذه الأسرة ، وشدة حاجتها للأساليب التقريرية التى تعمق الصورة فى الذهن ، وتوحى بها ايحاء قويا كأنه واقع محسوس يشاهده الانسان ، راعى فيه حال من سيقت اليهم القصة من ذوى النعمة واليسار ، الذين تخلو أذهانهم المترفة تماما عن تصور وقوع مثلها ، أو تخيل أحداثها ، فهم غير مترددين أو منكرين ، ومن ثم فقد سيقت اليهم الأساليب المعبرة خالية من المؤكدات [الأبيات من ١ — ٤] .

« رأى شبحا وسط الظلام فراعه » تصوير لحالة القلق النفسى المسيطرة على الرجل خاصة فى الليالى التى يغيب فيها القمر وينتشر الظلام ، وايحاء بتوقعه المستمر للخطر بدليل استعماله للفاء المفيدة للترتيب والتعقيب والتى تدل على سرعة ترتب ما بعدها على ما قبلها ، فهى قوية جدا فى موضعها نظرا لما أوحت به من سرعة الاستجابة النفسية لديه متمثلة فى احساسه بالفزع لمجرد رؤيته الشبح المترائى وسط الظلام ، وهو نفس الايحاء الذى نستشعره فى استعمال « فاء : فلما رأى الح » فقد أوقفتنا على سرعة تبدل الحالة الانفعالية لدى الرجل ، من الشعور بالخوف والقلق الى الاهتمام بما عسى أن يفعله فى حالته تلك مع ضيف ألم به ولجأ اليه ، فهو كريم تغلب عليه طبيعة الجود ، كما نرى فى الفعلين « تشمر ، واهتم » اللذين كنى بهما الشاعر عن هذه الطبيعة الأصيلة لدى الرجل ، والتى جعلتنا نتصوره قد نسى كل شىء سوى ما عساه أن يقدمه لضيفه .

وبين البيتين : الخامس والسادس ايجاز حذف يفهم من السياق استخدمه الشاعر ليدل فى براعة على أن الرجل الكريم الفقير لم يهتم باستقبال ضيفه والترحيب به بقدر اهتمامه بالتفكير فى اكرامه واطعامه ، والا فان السياق الطبيعى أن يقول مثلا « فلما رأى الضيف تشمر

واهتم ، ، وأقبل عليه مرحبا ، وقام يهئ له مكان نزوله ، ثم خلا بنفسه وأهله يسائلهم عما يستطيع فعله الى ...

وعلى الرغم من الجمل المحذوفة فان الرابطة قوية بين البيتين :

رأى شبحا وسط الظـــلام فراعـــه
فلمـــا رأى ضـــيفا تشـــمر واهتمـــا
فقال هيـــا رباه ضـــــيف ولا قـــرى
بحقك لا تحرمه تا لليلة اللحمـــــا

مما لا يدع مجالا للشـــك لدى متأمل ، فى أن هذا الشاعر الأصيل قد أدرك بفطرته وصـــدق موهبتـــه أن الايجـــاز وقوة التركيز أمران جوهريان فى القصة القصيرة ، التى تكاملت عناصرها فى هذه القصيدة ، كما سنعرف فيما بعد .

وفى البيت السادس « فقال هيا رباه الح » نجد الفاء العاطفة التى رأينا مثليها من قبل فى : « فراعه » فلما رأى ضيفا الخ والتى أوحت هنا بسرعة انصرافه بكليته الى التفكير فى قرى ضيفه الذى لم يكن يملك منه شيئا ، وخلوصه من هذا التفكير سريعا الى اللجـــوء بفطرته الى الله ، مجيب المضـــطر اذا دعـــاه ، فى ضراعـــة هى الى النحيب أقرب « هيا رباه » ثم عرض شـــكوه فى اسلوب خبرى غرضـــه الاستعطاف « ضيف ولا قرى » .. ثم تكرير الشكوى والرجاء « بحقك لا تحرمه تا الليلة اللحما » وفى هذه الأساليب تصوير قوى يوحى بما كان يعانيه كرب وضيق ومخافة من الافتضاح ، مما يؤكد رســـوخ طبيعة الكـــرم العربية فى أعماقه .

ولا نكاد نفرغ من هذا التصـــور حتى تطالعنا الفـــاء مرة أخرى لتوحى الينا ايحاء جديدا يتمثل فى صدق البنوة واخلاصها لدى الابن ان يستعطف أباه ويتوسل اليه أن يتخلص من كربته وحيرته بذبحه حتى

ييسر لضيفه طعاما من لحمه،وهذا ما يؤكده اسلوب الخطاب «أيا أبت» الذى غرضه الاستعطاف والتودد ، والأمر الذى غرضه الرجاء « اذبحنى الخ » — والنهى فى البيت التالى : « ولا تعتذر بالعدم » الذى غرضه النصح والارشاد بدليل القضية التى طرحها الابن بعد ذلك « عل الذى طرا يظن لنا ما لا فيوسعنا ذما » . وفى جملة « فيوسعنا ذما » كناية عن الهجاء المقذع الذى كان يصبه أمثال الحطيئة ، على من يظنون بهم الغنى والمنع ، ومجرد صدور هذا التعبير من الابن على الرغم من صغر سنه ، فانه يدل على تأصل طبيعة الكرم وتوارثها لدى العرب القدماء وأيضا يدل على تهيبهم الهجاء بالبخل ومنع الوفد .

والبيت التاسع « فروى قليلا الخ » نجده كناية عن الصراع المحتدم فى أعماق الرجل بسبب المأزق الذى أوقعه فيه قدوم الضيف المفاجىء وحيرته الشديدة الناشئة عن ذلك ، ووقوفه بين أمرين أحلاهما مر : أيضحى بولده فيذوق مرارة فقده الى الأبد أم يقف عاجز الحيلة فيجلب لنفسه معرة الدهر ؟

وانظر الى التعبيرات التى ساعدت على ابراز هذا المعنى « فروى قليلا ثم أحجم برهة ، وان هو لم يذبح فتاة فقد هما » .

وفى قوله :

فبيناهما عنت على البعد عانة
قد انتظمت من خلف مسحلها نظما
عطاشا تريد الماء فانساب نحوها
على أنه منها الى دمها أظمأ
فأمهلها حتى تروت عطاشها
فأرسل فيها من كنانته سهما

فخرت نحوص ذات جحش سمينة
قد اكنزت لحما وقد طبقت شحما

فيا بشره(٢٢) اذ جرها نحو قومه
ويا بشرهم لما رأوا كلمها يدمى

تصوير لحلول المفاجىء الذى يقع من النفس المكروبة موقع الماء من ذى الغلة الصادى ، والذى يشبه انقشاع الظلام الحالك عن صباح مشرق ، وانظر الى قوله « فبيناهما » الذى يوحى بما دار بين الرجل وابنه من أخذ ورد لم يخرجا منه الا بمزيد من اليأس والقنوط وشعور بأن الموقف يزداد شدة وتعقيدا • ثم الى قوله بعد ذلك « عنت على البعد عانة » الذى يوحى به اهبط عليهما من سرور مفاجىء لا حد له ، عندما لاح قطيع الحمر الوحشية من بعيد فى سيره السريع المنتظم وراء الفحل المتقدم ، والتنكير فى كلمة « عانة » التى هى كناية عن القطيع يوحى بأن الظلام وبعد المسافة منعا من تحديد قلة القطيع المتقدم أو كثرته ، وأن ذلك لم يكن يعنى الرجل المتلهف فى شىء مادامت احدى أفراده تكفيه وتفرج أزمته • وقوله : « قد انتظمت من خلف مسحلها نظما » كناية عن هيمنة الحمار الوحشى على اناثه ، ومتابعتهن له فى سيره الى مورد الماء ، وأنهن يسرن خلفه فى نظام عجيب • والتعبير بالمفعول المطلق المؤكد لعامله مناسب جدا هنا لأنه يؤكد هذه الحقيقة التى هى من خصائص هذا الحيوان الصحراوى • وقوله « عطاشا تريد الماء» توضيح للعرض من سيرها فى هذه الجهة على هذه الهيئة،كما أنه يعطى انطباعا ذهنيا بأن المكان يوجد به مورد للماء تعودت الحمر أن

---

(٢٢) هذا التعبير لا يفهم الا على أنه من أساليب التعجب المطلقة التى تترك لمقدرة المتكلم ومنزلته البلاغية والتى تفهم بالقرينة وهى أساليب كثيرة لا تحديد لها ولا ضابط (انظر النحو الوافى لعباس حسن جـ ٢ ص ٣٤٠ ط دار المعارف بمصر) •

تردده ، وقوله « فانساب نحوها » توحى فيه الفاء العاطفة بسرعة تحرك الرجل وحرصه الشديد على اغتنام الفرصة — والتعبير بالفعل « انساب » يوحى بخفة حركة الرجل ، وأنه انحدر تجاه القطيع من مرتفع كان يرقبه من فوقه ، كما أن التعبير يتضمن استعارة مكنية تزيد المعنى وضوحا حيث شبه الرجل فى سيره السريع فى خفة عبر المنحدر بثعبان ينساب ، وحذف المشبه به ورمز له بشىء من لوازمه وهو الانسياب هنا • ثم يأتى التعبير بقوله « على أنه منها الى دمها أظمأ » تعليلا لانسيابه بهذه الصورة • أما قوله « فأمهلها حتى تروت عطاشها » ففيه ايحاء بنخوة الرجل وانسانيته اللتين أبتا عليه أن يعجل القطيع الظامىء عن ريه ، على الرغم مما كان هو عليه من حالة اضطرار تلجئه الى العجلة والتسرع ، فوق ما يدل عليه التعبير من دليل على جلد الرجل وقوة مصابرته •

وكان بامكان الشاعر أن يقول بعد ذلك « وأرسل فيها الخ لولا أنه أدرك بحاسته الشعرية المرهفة ، وموهبته الأصيلة ، وأن الواو لا تسد مسد الفاء فى هذا المقام ، ومن ثم فقد وفق فى التعبير بالفاء التى أوحت بأنه انتظر فراغ الحمر من شرابها بصبر نافذ ، وأنه ما كاد يراها ترفع عن الماء حتى سارع بارسال سهمه فيها،وقوله «أرسل فيها» كناية عن تصويبه سهمه فى الظلام الى القطيع بعامة لأن انتشار العتمة وبعده النسبى يمنعانه من تعيين واحدة بعينها يوجه اليها رميته ولو أن الشاعر ذكر ذلك لأخذناها عليه ، ولكنه كان شديد التيقظ بالغ الدقة ، فى اختيار ألفاظه ، ولحسن الحظ أن السهم أصاب مقتلا من اثنان سمينة ذات جحش يتبعها فسقطت على الفور، وهذا ما توحى به الفاء فى قوله « فخرت » وقوله « قد اكتثرت لحما وقد طبقت شحما » كنايتان تؤكدان سمن هذه الأتان الصريعة ، وتضاعف من سرور الصائد المتلهف الى عشاء دسم طال اشتياقه اليه ، ولما كانت فطرة الحياة قد قضت بأنه لا شىء يعدل سرور الجائع الطاوى بالحصول على

الطعام ، فان صاحبنا قد سر سرورا يفوق الحد ، لا يصلح للتعبير عنه الا أسلوب التعجب « فيابشره اذ جرها نحو قومه » !!

والقوم الجياع الذين يجلسون متضورين ينظرون على الجمر من الجمر عودة عائلهم اليهم ومعه شيء يمسك الحياة ، ولو من ذلك الذى يؤكل كل اضطرارا ، لا يكادون يصدقون أعينهم — فى حالتهم هذه — اذا رأوه يجر مثل هذا الصيد السمين الذى يدمى جرحه•انه يفرحون وتبدو علامات للبشر العجيبة على وجوههم ، وانه لبشر مزدوج : أولا : انهم حصلوا على الطعام ، وثانيا : أن الطعام طيب شهى • ولذلك فقد أجاد الشاعر التعبير عن هذه الحالة بقوله « ويا بشرهم لما رأوا كلمها يدمى » ••• أما قوله :

وباتوا كراما قد قضوا حق ضيفهم
وما غرموا وقد غنموا غنما
وبات أبوهم من بشاشته أبسا
لضيفهم والأم من بشرها أمسا

فتصوير لما عبرت به الأسرة الكريمة عن طبيعة الجود المتأصلة لديها بعد أن سيق اليها هذا الرزق المفاجىء الذى لم تغرم له مالا بينما اكتسبت به طيب الذكر وجميل الثناء • وبين البيتين وما قبلهما ايجاز حذف غير مخل بالمعنى حتمته طبيعة القصة التى أجاد الشاعر حبكها ، وضبط عناصرها ، توفيتها حقها من التركيز القوى •

وفى هذين البيتين نجد الجمل الخبرية التى تفيد التقرير ، والتى توحى بتصرفات هؤلاء الناس حسبما تمليه عليهم طبيعة الكرم المتأصلة فيهم •

وفى تلك الجمل نجد الفصل بين جملتى : « باتوا كراما ، قد قضوا حق ضيفهم » حيث جاءت الثانية تفسيرا للأولى ، أو منزلة منها منزلة

الجواب لسؤال(٢٣) تقديره : كيف باتوا كراما • وهذا الفصل يفيد التأكيد • كما نجد الكناية فى قوله : « ما غرموا غرما » التى أوحت بمجيء الرزق سهلا بعد طول انتظار ، وهذا مما يضاعف السرور به • والاستعارة فى الغنم » التى توحى بحب الأسرة للمديح والنظر اليه على أنه كسب عظيم ، لا يقل عن الكسب المادى بحال !!

وأيضا نجد الطباق المقوى للمعنى بين « غرموا ، غنموا ، غرم ، غنم » والتنكير المفيد للتقليل فى « غرم » والذى يوحى بانعدام اى غرم يذكر غرمته هذه الأسرة ، والمفيد للتعظيم والتفخيم فى « غنم » حيث أوحى بعظم شأن المغنم الذى غنمته الأسرة ــ من وجهة نظرها ــ باكتسابها مديح الضيف الذى بالغت فى اكرام وفادته •

وفى البيت : « وبات أبوهم » نجد التشبيه فى بات أبا ، وباتت أما ، كما نجد التنكير المفيد للتعظيم فى شأن مثانية الأبوين فى اكرامهما للضيف والترحيب به •

القصيدة فى ميزان النقد الحديث :

واذا كان النقد الحديث ينادى بضرورة اندماج الشاعر فى تجربته اندماجا « ينم عن عميق شعوره واحساسه ، وأن يرجع فيها الى اقتناع ذاتى واخلاص فنى لا الى مجرد مهارته فى صياغة القول ليعبث بالحقائق أو يجارى شعور الآخرين لينال رضاهم،بل انه ليغذى شاعريته بجميع الأفكار النبيلة ، ودواعى الايثار التى تنبعث عن الدوافع المقدسة ••• وأن الشاعر هو الذى تتضح فى نفسه تجربته ويقف على أجزائها بفكره، ويرتبها ترتيبا قبل أن يفكر فى الكتابة ••• لينقلها الينا فى أدق ما يحيط

---

(٢٣) راجع باب الفصل والوصل فى الايضاح للقزوينى تحقيق : د• محمد عبد المنعم خفاجى •

بها من أحداث العالم الخـارجى ، فتتمثل فيها الحياة وألوان الصراع التى تتمثل فى النفس أو فى الفرد ازاء الأحداث التى تحيط به ، بل ان التجربة لتنبض بحياة تفتح عيوننا على حقائق قد لا بين عنها حقائق الحياة أو حالات الفس كما تبدو لأكثر النـاس ... والشـاعر يعبر فى تجربته عما فى نفسه من صراع داخلى ، سواء كانت تعبيرا عن حـاله من حالات نفسه هو ، أم عن موقف انسانى عام ، تمثله ، ولذا كان فى طبيعة التجربة ، والتعبير عنها ما يحمل الجمهور على تتبعها لأنه يتوقع أن يرى فيها ما يتجاوب وطبيعة التجربة التى جعلها الشاعر موضـع خواطره ليجلو صورتها »(٢٤) .

اذا هذا هو ما يدعو اليه نقادنا المعاصرون ملحين ، بدافع تأثرهم بالثقافة الغربية الحديثة ، زاعمين أن شعرنا العربى خـال من المقومات الأساسـية التى يدعو اليهـا النقد الأدبى الحـديث(٢٥) ، فان هذه القصيدة للحطيئة ، وكثيرا غيرها من قصائد الشعر العربى القـديم ترد على هذا الادعاء ، وتؤكـد أن حكم هؤلاء النقـاد ، ومن ذهب مذهبهم كانت تعـوزه الدقة والدراسة الشاملة لدواوين الشعر العربى القديم حتى يجىء الحكم منصفا مصيبا .

فهذه قصيدة صـيغت فى اسلوب قصصى محكم توافرت له كل

---

(٢٤) النقد الأدبى الحـديث : د. محمـد غنيمى هلال ص ٢٨٢ ط دار الثقافة ـ دار العودة ببيروت .

(٢٥) يراجـع ما كتبـه العقـاد وزميـلاه فى « الديوان » وآراء : د. غنيمى هلال فى النقـد الأدبى الحديث و د. محمـد مندور فى : فن الشعر ، والشعر المصرى بعد شوقى ـ كما تراجع المقدمة التى كتبها الدكتور « أحمد زكى أبو شادى » لديوان « رسالة حب » للشاعر صالح جودت ط دار العودة بيروت .

مقومات القصة القصيرة(٢٦) ، ففيها بالاضافة الى شدة الايجاز وقوة التركيز نجد وحدة الزمان المتمثلة فى الليل المظلم الذى جرت فيه الأحداث ، ووحدة المكان المتمثلة فى البيداء الواسعة المجهولة الموحشة ، التى كان يعيش فيها بطل القصة حياة البؤس والفاقة ، ويفرد فى شعب من شعابها زوجته وأبناءه الثلاثة وفيها أيضا مورد الماء الذى قصدته الحمر الوحشية الظامئة التى اصطاد الرجل احداها ، وأطعم بلحمها أهله وضيفه •

وفى القصة أيضا نجد الشخصيات المحدودة ، وفى مقدمتها شخصية الأب الممثلة للبطل الرئيسى ، الذى هو فى القصة شخصية محورية تدور حولها الأحداث ، ومعه أيضا ابنه الذى يسهم معه فى تشابك الأحداث وتعقدها وان كان دوره يقل عن دور الأب كثيرا ، حيث جاءت بطولته عنصرا مساعدا لابد منه فى اشتعال جذوة الصراع وتعقد الموقف •

وأيضا نرى الشخصيات الثانوية ، كشخصية الضيف وشخصيات الأم والابنين الآخرين •

أما الأحداث فانها تتمثل فى نزول الضيف المفاجىء الذى تحول معه موقف الأب من الخوف ، وتوقع الشر ، الى الاخير والارتباك ، وحوار الابن مع أبيه وعرضه عليه أن يذبحه ويهيىء لضيفه من لحمه طعاما ، ثم ظهور قطيع الحمر الوحشية فجأة ، واتخاذها الطريق الى

---

(٢٦) يذهب الدكتور محمد غنيمى هلال فى النقد الأدبى الحديث ص ٥٢٣ الى أنه لم يكن للقصة فى الأدب العربى شأن يذكر لأن القصص العربية القديمة لم تكن تخرج عن تلك الحكايات البدائية التى كانوا يسمرون بها ويتلهون ، والتى لم تكن لها قيمة فنية تجعلها تعد جنسا أدبيا مثل قصة خنافر الحميرى وغيرها •

مورد الماء خلف ســحلها ، وتربص الرجــل لها ، ثم نجاحه فى صــيد احداها ، وجرها نحو قومه .

فالقصة مترابطة متكاملة العناصر ، تتحــرك فيها الأشخاص على حسب الانفعال والتجاوب مع الحوادث ، وليس على حسب الحوادث المفتعلة(٢٧) وفى هذه القصة أيضا نجد الصراع متمثــلا فى المعــاناة النفسية التى يمر بها الرجل الجائع الذى يواجــه مخاوف الصــحراء الموحشة فى الليل المظلم الى جانب وطأة الجوع الشديدة عليه ، وعلى زوجته وأولاده .. وهذا الصراع يتدرج شيئا فشيئا الى أن يحتــدم ويشتد بطروق الضيف ، ثم بما نراه فى حــوار الأب مع ابنه ، الذى يرى أن ذبحــه وتقديم لحمه طعاما للضــيف أهون بكثير من التعــبير بنقيصة البخل ، والأخذ والرد بين الرجل وابنه ووقوفه أمــام خيارين أحلاهما مر ، وتردده المرير بين الاقدام والاحجام ، وهنا تبدو العقدة قوية بالغة القوة ، مؤثرة عظيمة التأثير ، ثم يأتى الحل الذى تختتم به القصة ختاما طبيعيا غير مفتعل فتهدأ به النفوس المضطربة ، والقلوب الحائرة ، ويتغير فيه مصير البطل من الشــقاء الى السعادة ، حينمــا ينجح فى صيد الأتان الوحشية وجرها نحو قومه الخ .

فيا بشره اذ جرهــــا نحو قومــه
ويا بشرهم لما رأوا كلمهــــا يدمى
وباتوا كراما قد قضوا حق ضيفهم
وما غرموا غرما وقــد غنموا غنما
وبات أبــــوهم من بشاشــته أبا
لضــيفهم والأم من بشرهــا أمــا

---

(٢٧) راجع حديث الدكتور محمد غنيمى هلال عن مميزات القصة الحديثة (النقد الأدبى الحديث ص ٤٩٢ وما بعدها) .

واذا كان النقد الحديث يرى أن الوحدة العضوية للقصيدة تتمثل فى « وحدة الموضوع ووحدة المشاعر التى يثيرها الموضوع ، وما يستلزم ذلك من ترتيب الصور والأفكار ترتيبا تتقدم به القصيدة شيئا فشيئا حتى تنتهى الى خاتمة يستلزمها ترتيب الأفكار الصور ، على أن تكون أجزاء القصيدة كالبنية الحية لكل جزء وظيفته فيها ويؤدى بعضها الى بعض عن طريق التسلسل فى التفكير والمشاعر •

وتستلزم هذه الوحدة أن يفكر الشاعر تفكيرا طويلا فى منهج قصيدته وفى الأثر الذى يريد أن يحدثه فى سامعيه ، وفى الأجزاء التى تتدرج فى احداث هذا الأثر بحيث تتمشى مع بنية القصيدة بوصفها وحدة حية ، ثم فى الأفكار والصور التى يشتمل عليها كل جزء ، بحيث تتحرك به القصيدة الى الأمام لاحداث الأثر المقصود منها عن طريق التتابع المنطقى ، وتسلسل الأحداث والأفكار » ••• وأنه « لابد أن تكون الصلة بين أجزاء القصيدة محكمة صادرة عن وحدة الموضوع ووحدة الفكر فيه ، ووحدة المشاعر التى تنبعث منه ، أى أنها صلة تقضى بها طبيعة الموضوع ، ووحدة أثر الناتج عنه »(٢٨) •

اذا كان هذا ما قرره نقادنا المحدثون بشأن الوحدة العضوية للقصيدة ونادوا بضرورة التزامه ، ومراعاته عند النظم حتى تأتى القصائد مترابطة محكمة النسج ، متسلسلة الأفكار ، كأنها فى تتابعها واحكام نسجها سلسلة متشابكة الحلقات ، تؤدى كل حلقة فيها الى التى تليها حتى النهاية التى تجىء خاتمة طبيعية منطقية لما سبقها وقالوا « ان الوحدة العضوية بهذا المفهوم كانت من أوائل معالم التجديد فى الشعر العربى الحديث ، ومن بواكير مظاهر تأثرنا المحمود بشعر الغرب ••• وأن خليل مطران كان أول من نبه الى أنه لم يجد فى الشعر

---

(٢٨) النقد الأدبى الحديث ص ٣٩٤ •

العربى ارتباطا بين المعانى التى تتضمنها القصيدة الواحدة ، ولا تلاحما بين أجزائها ولا مقاصد عامة تقام عليها أبنيتها وتوطد أركانها ، وربما اجتمع فى القصيدة الواحدة من الشعر ما يجتمع فى أحد المتاحف من النفائس ولكن بلا صلة ولا تسلسل »(٢٩) .

وانتهوا الى أن هذا الاتجاه المكتسب من ادباء الغرب ونقاده بلسم سحرى من شأنه النهوض بالشعر العربى ، واحياء مواته وخلقه من جديد حتى يقف على قدمين ويتمكن من مسايرة الآداب العالمية بعد أن ظل قرونا طويلة جامدا على صورته الموروثة عن الجاهليين الذين لم تكن لقصائدهم « وحدة عضوية فى شكل ما من الأشكال ولا صلة فكرية بين أجزائها،وأن الوحدة فى القصيدة الجاهلية خارجية لا رباط فيها الا من ناحية خيال الجاهلى وحالته النفسية فى وصفه الرحلة

---

(٢٩) النقد الأدبى الحديث ص ٤٠٢ وقد لخص خليل مطران منهجه هذا فى مقدمة ديوانه الذى أخرجه عام ١٨٩٠م وجاء فيها « هذا شعر ليس ناظم بعبده ، ولا تحمله ضرورات الوزن أو القافية على غير قصده ، يقال فيه المعنى الصحيح في اللفظ الفصيح ، ولا ينظر قائله الى جمال البيت المفرد ولو أنكر جاره وشاتم أخاه ، ودابر المطلع وقاطع المقطع وخالف الختام ، بل ينظر الى جمال البيت فى ذاته وفى موضعه ، والى جملة القصيدة فى تركيبها وفى ترتيبها وفى تناسق معانيها وتوافقها مع ندور التصور وغرابة الموضوع ومطابقة كل ذلك للحقيقة ، وشفوفه عن الشعور الحر ، وتصرى دقة الوصف واستيفائه فيه على قدر (راجع جـ ١ من ديوان خليل مطران ص ٨ ـ ٩ والنقد الأدبي الحديث ص ٤٠٣) وقد أكد الأستاذ عباس العقاد الدعوة الى هذا الاتجاه بقوله : ان القصدة ينبغى أن تكون عملا فنيا تاما يكمل فيها تصوير خاطر أو خواطر متجانسة كما يكمل التمثال بأعضائه والصورة بأجزائها واللحن الموسيقى بأنغامه بحيث اذا اختلف الوضع أو تغيرت النسبة أخل ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها (انظر ديوان العقاد جـ ٤ ص ٤٦) كما يقول فى مجلة الكتاب عدد أكتوبر سنة ١٩٤٧ ص ١٠٥٦ : والقصيدة بنية حية وليست قطعا متناثرة يجمعها اطار واحد ، فليس من الشعر الرفيع شعر تغير فيه أوضاع الأبيات ولا تحس منه ثم بتغير فى قصد الشاعر ومعناه .

لمدح الممدوح ، وكان لهذا الرباط الواهي مبرر من المبررات فى العصر الجاهلى ، ثم صار تقليديا على مر العصور »(٣٠) .

أقول : اذا كان النقد الحديث يرى هذا ويتعصب له ، ويدعو اليه ويعتقد أن شعرنا القديم منذ امرىء القيس حتى ظهور خليل مطران ، يخلو خلوا تاما من تلك الوحدة العضوية ، فما رأى هؤلاء النقاد عندما نعرض عليهم قصيدة الحطيئة « وطاوى ثلاث » ؟

أو ليست هذه القصيدة مرتبة المعانى متسلسلة الأفكار ، لا تحتمل أبياتها التغيير فى أوضاعها الطبيعية بالتقديم والتأخير ، واننا لو قدمنا أو أخرنا فى أبياتها لاختلت معانيها ، وانفرط عقدها وضاعت حبكتها القصصية ؟ وأن الصواب كل الصواب أن تبقى كما هى على نفس سياقها الذى رتبه ناظمها .

واذا كانت تلك القصيدة تصلح أن تكون نموذجا حيا للشعر المترابط المتحد الأجزاء الذى توافرت له وحدة الموضوع ، ووحدة المشاعر التى أثارها الموضوع ، وما استلزمه ذلك من ترتيب الصور والأفكار ترتيبا تقدمت به القصيدة شيئا فشيئا حتى انتهت الى الخاتمة التى استلزمها ترتيب الأفكار والصور فى حين أنها من نماذج الشعر القديم ، والقديم جدا ، الذى عاش صاحبه فى الجاهلية أكثر مما عاش فى الاسلام أفلا نكون قد هضمنا شعرنا القديم حقه وجردناه من مقوماته الفنية دون مبرر ؟

وهل كان قصائد شعرنا القديم لم تنظم الا فى المديح ؟؟

ان قصيدة الحطيئة هذه ، وغيرها كثير ، وكثير جدا لتهيب بظالمى أدبنا العربى القديم من نقادنا المحدثين أن يعيدوا تقليب صفحات دواوين الشعر العربى القديم ، لعلهم يراجعون أنفسهم ويرون الحق الى نصابه .

---

(٣٠) المرجع السابق .